السائق رمضان

بقلم د. علي درويش

الشارقة 19 تشرين أول أكتوبر 2010

في عالم تنعدم فيه القيم والأخلاق
يصبح اللصُّ بطلاً والسارقُ قدوةً حسنةً، والشريفُ غبيًا،
ويصبح المالُ الحرامُ غنيمةً من غنائم الحرب!

خرجتُ من الفندق الذي أنزل فيه في عجمان وأوقفت سيارة أجرة في طريقي إلى لقاء أختي في مركز صحارى مول للتسوق في مدينة الشارقة. فحييت السائق بالسلام عليكم. ثم أردفت سائلاً بالأوردية، وقد تعلمت بضع كلمات من السائقين الباكستانيين الذين يعملون على سيارات الأجرة في المدينة:

- كيه ساهيه؟

أقصد كيف حالك، متوقعًا ردًا بالأوردية، فإذا بالسائق يفاجئني بالقول ضاحكًا:

- هوّ فاكرني باكستاني؟ ده أنا مصري!

فحييته بالعربية وسألته متى قدم إلى الإمارات ومن أي منطقة في مصر.

- هو حضرتك زرت مصر؟
- لا! ولكن مصر في قلوبنا كلنا!

فضحك ضحكة هزّت السيارة، وكان رجلا ضخما بدينا، ثم راح يخبرني قصة حياته، وهو يسوق باتجاه الشارقة.

- دي العيشة هنا غالية قوي! إحنا جينا في الأزمة المالية اللعينة دي. المرتب ما يكفيش. ولكن الحمد لله. العيال ... يعني... يا دوب الواحد يقدر يحوش فلوس ع شان يبعت لأهله.
- ح تعمل إيه. الدنيا كلها غالية.

- ايو يا بيه. بس العيال والنبي ما اعرفش إزاي أقولها لك. ما علشّ. أنت عاوز تروح فين؟
- صحارى مول، زي ما قلت لك!
- آه، بس كنت عاوزك تفكّرني.
- طيب!
- حضرتك تعرف إزاي تروح للشوبيغ مول؟
- لو كنت أعرف ما كنتش سألتك تاخدني!
- حاضر يا بيه! حاجة غريبة!
- حاجة غريبة فعلاً!

وفي متعة الحديث معه وجدتني أتحدث معه بلهجة مصرية. فتنبه إلى ذلك فقال بروح النتكة التي ألفناها في نجوم المرح والكوميديا في العصر الذهبي للسينما المصرية، وإذا بي أتخيل توفيق الدقن ورضا بوند وعبد المنعم إبراهيم واسماعيل ياسين.

- هو انت حا تاكلني أونطا يا بيه؟
- ليه بقى؟
- دانتا بتتكلم مصري معايا!
- بس لهجتي مش كويسة.
- معليش يا بيه! حاجة غريبة!

ثم عاد إلى قصته وراح يشكو من قلة مرتبه وعائلته والتزامته المالية.

- تخيل يا افندم! المرتب ده ما يطلعش ألفين درهم ما يبقاش منه ولا فلس. والعيال، يعني الحمد لله، ما يحتاجوش لحاجة! بس يعني ما أقدرش اديهم أكثر.

وما زلت أستمع إليه وأستمتع بروح النكتة عنده حتى وصلنا إلى مدخل صحارى مول. فقلت له:

- أنزلني هنا!
- لا ده يمكن ممنوع هنا! حاخدك لحتة تانية في الشارع التاني.

وهنا نظرت إلى العداد فرأيت المبلغ 22 درهما. وقبل أن أنهي كلامي ضحك وانطلق يبحث عن مدخل آخر في الشارع الخلفي. وكان كلما وصل إلى باب مسدود أو مغلق قال:

- ده سكروا المدخل ده! وده كمان! الله! حاجة غريبة!

فطلبت منه أن يلتف في الشارع ويعود أدراجه، ولكنه قال إن ذلك أمر صعب. ومضى إلى آخر الطريق فوصل إلى دوار ثم ذهب باتجاه دبي.

- انت رايح فين يا بني؟ ح نوصل دبي!!
- ما تقلقش يا فندم! حوصّلك لكوبري المشاة وتقطع الشارع!
- كوبري المشاة؟ نحن وصلنا عجمان!

فضحك وقال:

- حاجة غريبة! ح ارجع بعد الدوار! ح نروح فوق الكوبري ده وننزل تحت الكوبري ده ونروح طوالي ونوصل للصحارى مول.

ثم علقنا في زحمة السيارات في طريق عودتنا إلى صحارى. وبعد فترة كانت أختي قد فرغ صبرها فيها وهي تنتظرني مع زوجها وابنتها، وصلنا إلى المدخل الرئيس لمركز صحارى. فقال:

- ح نزّلك هنا! لا أفضل انزلك قدام شوية!
- طيب خذني إلى المدخل الرئيسي!

فذهب في ذلك الاتجاه حتى وصلنا! فنظرتُ إلى العداد فرأيته قد سجل مبلغ 40 درهما! فشعر أني امتعضت لما فعله فقال لي:

- حقك علي يا بيه! ما تواخزنيش! العيال يا بيه! حاجة غريبة!
- حاجة غريبة فعلا!

فأعطيته المبلغ وخرجت من السيارة وأنا أبتسم لما فعله السائق رمضان. فرغم دفعي الكلفة مضاعفة وتأخري على أختي فإني لم أشعر بالاستياء. وقد "أكلني عونطا"!

لقد أدخل المرح والفرح إلى قلبي بعد يوم حافل في العمل ولم يمض على وجودي في البلاد سوى أسابيع قليلة. حاجة غريبة!

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف